وقال الخفاجي: وهو المعتمد» ، بينما قال عن القول الأول سنة ٦٨٥هـ: «هذا هو المشهور»[١].

ورد بروكلمان هذا القول الشاذ الأخير ، واستبعده ، قائلاً: «غير أنه ليس من المحتمل أن تكون وفاته قد تأخرت حتى ٧١٦هـ/ ١٣١٦م»[٢].

ورأى أن الراجح هو القول الأول الذي ذكره الصفدي بالسند ، وأيده ابن كثير لقرب العهد به ، وهو المشهور.

القسم الثاني
حياة البيضاوي العلمية

صنف البيضاوي رحمه الله تعالى كتباً كثيرة في موضوعات مختلفة ، كالفقه وأصول الفقه ، والتفسير والحديث ، والتوحيد أو علم الكلام أو أصول الدين ، والمنطق والجدل ، والعربية والتاريخ.

ورزق الله تعالى البيضاوي التوفيق في التأليف ، والنجاح في التصنيف ، والسداد في اختيار المعلومات ، والدقة في العلم ، وتفضل الله عليه بإقبال الناس على كتبه ، وانتشار مصنفاته ، وشيوعها في الأقطار ، وأخذ منها العلماء، وطلاب العلماء ، فانتسبوا إليه ، وتتلمذوا على كتبه ، فالعلم نسب بين أهله.

وإذا كانت كتب التراجم والتاريخ لم تسعفنا في معرفة تلاميذه بسبب الاضطراب السياسي والاجتماعي ، وفقدان الأمن والطمأنينة ، وتقطع أوصال البلاد الإسلامية ، وسيطرة الخوف والرعب على يد المغول ، فإن كتب البيضاوي كانت السفير الصادق ، والرسول الأمين ، والترجمان

---

(١) حاشية الشهاب الخفاجي ١/ ٤ ، نهاية السول ١/ج.
(٢) دائرة المعارف الإسلامية ٤/ ٤١٨.

الصحيح ، والصلة الوثقى بيننا وبينه ، فالعلم رحم بين أهله ، وقد تتلمذ المسلمون جيلاً بعد جيل على كتب البيضاوي ، وتلقاها العلماء بالقبول ، وعكف عليها الطلاب بالدراسة والحفظ[1] ، وصارت كتبه معتمدة في الجامعات الإسلامية والمعاهد العلمية للتدريس ، وطبع الكثير منها عدة طبعات في عدة أقطار عربية وإسلامية ، كما ترجم بعضها إلى عدة لغات .

وامتازت كتب البيضاوي بالاختصار والدقة ، وسلامة الاختيار ، وحسن التبويب والتنظيم ، وصارت قطب الرحى لعدد كبير من العلماء ، والمصنفين ، فتناولوها بالشروح العديدة ، والحواشي الكثيرة ، والتعليقات المتنوعة المفيدة ، كما سنرى ، حتى اشتهر البيضاوي بكتبه ، وعرف في العالم الإسلامي بها ، وحظي بالثناء العاطر ، والذكر الجميل ، وهذه بعض النصوص في ذلك .

قال ابن كثير : «البيضاوي صاحب التصانيف»[2] .

وقال اليافعي : «الإمام ، أعلم العلماء الأعلام ، ذو التصانيف المفيدة المحققة ، والمباحث الحميدة المدققة» ثم قال : «وللقاضي ناصر الدين المذكور مصنفات عديدة ، ومؤلفات مفيدة» وذكر بعضها ، ثم قال : «وغير ذلك مما شاع في البلدان ، وسارت به الركبان ، وتخرج به أئمة كبار ، رحمه الله تعالى رحمة الأبرار»[3] .

---

(١) نقل طاش كبرى زادة عن محمد بن محمد بن محمد بن محمد الجزري الشافعي (٨١٤هـ) أنه كان يحفظ منهاج البيضاوي ، وذكر مثله عن غيره (انظر : مفتاح السعادة ٢/ ٥٧) .

(٢) البداية والنهاية ١٣/ ٣٠٩ .

(٣) مرآة الجنان ٤/ ٢٢٠ .

وقال الخوانساري عنه: «صاحب التفسير المعتمد عليه عند علماء الجمهور»[1].

وقال الحسيني الموسوي: «القاضي البيضاوي صاحب التصانيف المشهورة»[2].

وقال الصفدي عنه: «العالم العلامة، المحقق المدقق، ناصر الدين الشيرازي البيضاوي، صاحب التصانيف البديعة المشهورة»[3].

ونقل ابن العماد الحنبلي عن ابن حبيب أنه قال عنه: «تكلم كل من الأئمة بالثناء على مصنفاته»[4].

وقال العزاوي: «البيضاوي من أعاظم علماء الإسلام، ذاعت شهرته في الأقطار، بحيث دخلت مؤلفاته في مناهج التدريس، وصار تفسيره يدرس في المدارس العلمية، ويعد من كتب التفسير المعتبرة، ولم يعرف أنه مؤرخ، وإنما هو قاض وفقيه شافعي، وما كان يظن امرؤ أن الاضطراب في العالم الإسلامي يؤرخ عنه فقيه أصولي، ومفسر ديني»[5].

وقال المراغي: «ألف مصنفات عدة، تدل على قدم راسخة في التأليف، وبراعة فائقة في التصنيف»[6].

---

(١) روضات الجنان ص ٤٥٤.
(٢) نزهة الجليس ٢/ ٨٧، وانظر: كشف الظنون ٢/ ١٠٥.
(٣) الوافي بالوفيات ١٧/ ٣٧٩.
(٤) شذرات الذهب ٥/ ٣٩٢.
(٥) التعريف بالمؤرخين ص ١١٦.
(٦) الفتح المبين ٢/ ٨٨.

وقال طاش كبرى زادة: «صنف التصانيف المشهورة في أنواع العلوم»[1].

تصانيف البيضاوي:

تنقسم مصنفات البيضاوي إلى قسمين، قسم مشهور ومعروف، وذكرته معظم المصادر، وقسم غير مشهور، انفرد بذكره بعض المؤرخين في المراجع التي سنشير إليها، وهي:

١ ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، وهو التفسير الذي ذاع في الأمصار، واشتهر البيضاوي به أثناء حياته، وسار في الأقطار، وتلقاه العلماء شرقاً وغرباً بالقبول، ووشحوه بالشروح والحواشي، وطبع عدة مرات.

٢ ـ تحفة الأبرار في شرح مصابيح السنة للبغوي في الحديث الشريف.

٣ ـ الغاية القصوى في دراية الفتوى في فروع الفقه الشافعي.

٤ ـ شرح التنبيه للشيرازي في الفقه الشافعي في أربع مجلدات، ذكره ابن كثير.

٥ ـ تذكرة في الفروع، ذكرها إسماعيل باشا البغدادي في «هدية العارفين».

٦ ـ منهاج الوصول إلى علم الأصول، وهو المختصر المشهور في أصول الفقه.

٧ ـ شرح منهاج الوصول.

٨ ـ شرح المنتخب في أصول الفقه للإمام فخر الدين الرازي.

---

(١) مفتاح السعادة ٢/١٠٣.

٩ ـ شرح المحصول في أصول الفقه للإمام فخر الدين الرازي أيضاً ، ذكر ابن كثير.

١٠ ـ مرصاد الأفهام إلى مبادىء الأحكام ، وهو شرح مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه.

١١ ـ طوالع الأنوار في أصول الدين ، وهو كتاب دقيق للغاية ، وأجل مختصر صنف في علم الكلام ، كما يقول السبكي.

١٢ ـ مصباح الأرواح ، اختصر فيه طوالع الأنوار في أصول الدين.

١٣ ـ الإيضاح في أصول الدين ، وهو شرح على كتاب المصباح.

١٤ ـ شرح الكافية في النحو لابن الحاجب.

١٥ ـ لب الألباب في علم الإعراب ، اختصر فيه الكافية لابن الحاجب.

١٦ ـ شرح المطالع ، وهو مطالع الأنوار في الحكمة والمنطق للقاضي سراج الدين الأرموي.

١٧ ـ متن في علم الهيئة ، وهو مختصر ذكره الخفاجي.

١٨ ـ نظام التواريخ ، باللغة الفارسية ، من ابتداء الخلق حتى سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م.

١٩ ـ التهذيب والأخلاق في التصوف ، ذكره محب الدين الخطيب في مقدمة نهاية السول.

٢٠ ـ رسالة في موضوعات العلوم وتعاريفها ، ذكرها البغدادي ، والزركلي.

٢١ ـ شرح الفصول لنصر الدين الطوسي ، ذكره البغدادي والخوانساري.

٢٢ ـ منتهى المنى في شرح أسماء الله الحسنى ، ذكره البغدادي[١] .

وهذا المسرد لمصنفات البيضاوي يدل على الجوانب المختلفة لحياته العلمية ، وثقافته الواسعة ، وإنتاجه الوفير ، وسوف نقتصر على الجانب الفقهي ، والأصولي .

أولاً : البيضاوي فقيهاً :

امتاز القرن السابع الهجري بميزة خاصة بالنسبة للمذهب الشافعي ، وهو أنه بلغ رتبة الكمال والنضوج في هذا القرن ، وتبوأت كتبه الأوج ، وظهر فيه أئمة وأعلام وصلوا إلى القمة ، وتمت فيه حركة التدقيق والتحقيق لآراء المذهب وأقوال أئمته ، وتحقق هذا العمل على يدي محققيْ المذهب : الإمام الجليل عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القزويني ، الشيخ أبو القاسم الرافعي ، صاحب الشرح الكبير ، المسمى «فتح العزيز في شرح الوجيز» المشهور المعروف ، وتوفي الرافعي سنة ٦٢٠هـ[٢] ، والإمام العلامة ، محيي الدين ، يحيى بن شرف بن مرة ، الشيخ أبو زكريا النووي ، المتوفى ٦٧٦هـ ، صاحب التصانيف الكثيرة[٣] ، وكان معهم عدد كبير من الفقهاء والعلماء[٤] .

---

(١) انظر : إيضاح المكنون ١/١٣٨ ، ٢/٢٦٩ ، ٥٩٠ ، هدية العارفين ١/٤٦٣ ، مفتاح السعادة ٢/١٠٥ ، ١٧٩ ، معجم المؤلفين ٦/٩٧ ، كشف الظنون ١/١٦٢ ، ٢/١٠١ ، ٥٣٨ ، نهاية السول ١/د ، البداية والنهاية ١٣/٣٠٩ ، التعريف بالمؤرخين ص ١١٨ ، حاشية الشهاب الخفاجي ١/٤ ، وبقية كتب التراجم السابقة .

(٢) انظر ترجمته في (طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٨١) ، والمراجع المشار إليها في الهامش .

(٣) انظر ترجمته في (طبقات الشافعية الكبرى ٨/٣٩٥) ، والمراجع المشار إليها في الهامش .

(٤) من هؤلاء الفقهاء الأعلام ابن أبي الدم الحموي (٦٤٢هـ) وابن الصلاح (٦٤٣هـ)=

وشارك في هذه النهضة الفقهية للمذهب الشافعي القاضي البيضاوي ، فتفقه على علماء بلده ، ورحل إلى شيراز وتبريز وغيرهما ، وحصل العلم بالأحكام الشرعية حتى وثق من نفسه بإتقانها ، وطلب القضاء ، كما مر ، حتى وصفه ابن العماد بقوله: «ولي أمر القضاء بشيراز ، وقابل الأحكام الشرعية بالاحترام والاحتراز»[1] ، ولم تدم ولاية القضاء عليه كثيراً ، فاعتزلها ، ورحل إلى تبريز ، وبدأ بالتصنيف والتأليف.

كتب البيضاوي الفقهية:

تناول البيضاوي رحمه الله التأليف الفقهي على المذهب الشافعي ، وتنوعت هذه الكتب اختصاراً وتطويلاً ، كما تنوعت في الأسلوب ، وصنف ثلاثة كتب، الأول رسالة في الفروع، والثاني اختصار لأحد أمهات كتب المذهب ، والثالث شرح لأهم مختصر في الفقه الشافعي ، وهي:

١ ـ تذكرة في الفروع:

وهذا الكتاب لا نعرف عنه شيئاً ، ولم يذكره في مصنفات البيضاوي إلا إسماعيل باشا البغدادي[2] ، ولعله رسالة مختصرة في الفقه الشافعي على طريقة البيضاوي ومنهجه في التأليف.

٢ ـ شرح التنبيه:

وهو أربعة مجلدات ، ذكره ابن كثير وغيره[3] ، ولم يظهر له أثر في فهارس الكتب والمكتبات ، ولعله لا يزال مجهولاً في بعض الأمكنة

= والعز بن عبد السلام (٦٦٠هـ) والفركاح المصري (٦٩٠هـ) ، كما ظهر أئمة وأعلام كبار في القرن السابع في المذاهب الأخرى ، كالشيخ ابن قدامة الحنبلي (٦٢٠هـ) ، والشيخ المجد بن تيمية (٦٥٢هـ) وابنه شهاب الدين بن تيمية (٦٨٢هـ) ، القرافي المالكي (٦٨٤هـ) ، وابن الساعاتي الحنفي (٦٩٤هـ).

(١) شذرات الذهب ٥/ ٣٩٢.

(٢) هدية العارفين ١/ ٤٦٣.

(٣) انظر البداية والنهاية ١٣/ ٣٠٩ ، والفتح المبين ٢/ ٨٨.

والدور الخاصة التي تقتني المخطوطات ، وتحتفظ بأمهات كتب التراث ، أو لعله قد فقد مع ما فقد من تراث الإسلام والمسلمين.

ونقل ابن السبكي عن عبد العزيز بن عبد الكريم الجيلي ، شارح التنبيه المشهور ، أنه «قد ذكر أنه لخص «الشرح» من الوسيط والبسيط والشامل. . . ، والنهاية ومختصرها. . . وشرح البيضاوي» وجاء في الهامش أن ابن السبكي قال في «الطبقات الوسطى» عن صاحب الترجمة: «والجيلي استشعر من نفسه أنه ينكر عليه ، فعدّ في خطبة كتابه كتباً كثيرة للأصحاب» ولم يؤرخ وفاته ، بل قال: «ولم أعرف إلى الآن من حال الجيلي شيئاً»[1].

ويعتبر «التنبيه» للإمام أبي إسحاق الشيرازي ، المتوفى سنة ٤٧٦هـ ، أهم المختصرات الفقهية في المذهب الشافعي قبل أن يصنف الإمام النووي مختصره «المنهاج» وكان العلماء يتبارون بحفظه وشرحه ، حتى ذاع صيته ، واشتهر بين العلماء ، وله شروح تزيد عن السبعين[2] ، ومن هنا يظهر أهمية شرح التنبيه للبيضاوي ، وأنه شرح كبير في أربعة مجلدات كما وصفه ابن كثير وغيره.

٣ ـ الغاية القصوى في دراية الفتوى:

وهو أهم كتاب فقهي للبيضاوي ، شاع بين الناس وانتشر ، وأجمعت كتب التراجم والتاريخ وأسماء الكتب على نسبة هذا الكتاب للبيضاوي ، وقد حفظ من عوادي الزمن ، وكوارث الأيام ، ووصل سالماً كاملاً حتى

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٥٧ ، وفي المكتبة الظاهرية بدمشق كتاب «الموضح في شرح التنبيه» لعبد العزيز بن عبد الكريم الجيلي» الجزء الأول ، والجزء الثالث.

(٢) انظر: كشف الظنون ١/٣٣٣ ، الإمام الشيرازي ، للدكتور محمد حسن هيتو ص ١٦٨.

عصرنا الحاضر[1] ، وهذا الكتاب اختصار لكتاب الوسيط للإمام الغزالي (٥٠٥هـ).

ولا تظهر أهمية هذا الكتاب «الغاية القصوى» بالفقه إلا بعد معرفة سلسلة كتب الفقه للمذهب الشافعي ، فالإمام الشافعي رحمه الله كتب «الأم» وجاء المزني فاختصر كتاب الأم في «مختصر المزني» فجاء إمام الحرمين وشرح مختصر المزني في كتاب «نهاية المطلب» ، وجاء تلميذه الغزالي فاختصر النهاية إلى كتابه «البسيط» ثم اختصر البسيط في «الوسيط» ثم اختصر الوسيط في «الوجيز» ثم اختصر الوجيز في «الخلاصة» ، وجاء الرافعي ، وهو محقق المذهب ، فاختصر من الوجيز كتاب «المحرر» ثم اختصر الإمام النووي ، وهو المحقق الثاني للمذهب كتاب المحرر في كتابه «المنهاج» وهو الكتاب المختصر المعتمد عند الشافعية ، كما أن الرافعي شرح الوجيز للغزالي في كتابه المشهور «فتح العزيز» وجاء النووي أيضاً واختصر فتح العزيز إلى «روضة الطالبين» في اثني عشر جزءاً ، وهو الكتاب المعتمد أيضاً في المذهب ، وطبع كاملاً في دمشق[2].

وهكذا يظهر أن «الغاية القصوى» اختصار لأحد كتب المذهب ، في سلسلة الفقه الشافعي ، وأن الغاية اختصار دقيق ومحكم للوسيط ، مع العبارة السليمة ، واللغة الفصحى ، واختيار الألفاظ الجميلة ، مع الاحتفاظ بالمصطلحات الفقهية ، وتعتمد على الاختصار لاختيار الأقوال الراجحة ، والآراء المعتمدة في المذهب ، مع الأدلة والتعليل والإشارة

---

(١) يوجد من كتاب «الغاية القصوى» عدة نسخ مخطوطة وكاملة ، وقام الدكتور علي محيي الدين القرداغي بتحقيقه للحصول على رسالة ماجستير من الأزهر ، ثم طبعه ونشر في جزأين.

(٢) انظر: الفوائد المكية للسيد علوي السقاف ص ٣٥ وما بعدها ، المذهب عند الشافعي ، مقال للدكتور محمد إبراهيم أحمد علي في مجلة جامعة الملك عبد العزيز ، العدد الثاني ص ٢٥.

أحياناً إلى المقارنة مع المذهب الحنفي والمالكي ، ومع الاعتماد على القواعد الفقهية ، والمناهج الأصولية ، والمناقشة المنطقية الهادئة المتزنة ، والأدب الجم مع أئمة المذاهب ، ويسميه كثير من العلماء بـ «مختصر الوسيط» .

والكتاب أنموذج فريد لكتاب فقهي معاصر يبين الأحكام الشرعية باختصار مع الأدلة ، وفوق كل ذلك يتميز بالترتيب وحسن التبويب ، فقد قسم الكتاب إلى عدة كتب ، وكل كتاب بحثه في عدة أبواب ، وعرض الباب في عدة فصول ، ويضيف إلى ذلك عناوين إضافية : كالفرع ، والفائدة ، والتهذيب والخاتمة ، مع العناوين الأساسية للكتاب والباب والفصل .

ويتألف الكتاب من تقديم البيضاوي نص فيه أنه اختصر الوسيط ، ثم تصدير عن مقدمات الفقه ، وعرض أحكام الفقه في كتب ، ابتداءً من الطهارة ، فالتيمم فالحيض ، فالصلاة ، فالجنائز ، فالزكاة ، فالصيام ، فالاعتكاف ، فالحج ، فالبيع . . ، فالعتق ماراً بجميع الأحكام الفقهية .

ويتبوأ كتاب «الغاية القصوى» الدرجة العليا في هذا المجال ، ولكنه لم ينتشر بين العلماء والطلاب ومجالس العلم كما انتشرت كتب البيضاوي في أصول الفقه والتفسير ، ولعل السبب في ذلك أن الإمام النووي رحمه الله كان معاصراً للبيضاوي في القرن السابع ، وبلغ النووي رتبة المحقق والمرجح في المذهب ، والمدقق لأقواله ، والمنقح لكتبه ، وصنف كتبه التي سارت بها الركبان ، والتف حولها المسلمون في أرجاء المعمورة ، وهي «منهاج الطالبين» مختصراً ، و«الروضة» و«المجموع» وغيرها ، فلم يفسح المجال لكتاب البيضاوي وغيره ليأخذ نصيبه في دور العلم ومعاهده[1] .

---

(١) انظر تعقيب ابن السبكي على إحدى مسائل «الغاية القصوى» وتصرف البيضا

وذكرت كتب التراجم والتاريخ وفهارس الكتب أن الشيخ عبد الله بن محمد الفرغاني الهاشمي الحسيني ، المقلب بالعِبري ، المتوفى سنة ٧٤٣هـ وقيل سنة ٧٤٢هـ ، الذي كان قاضياً بتبريز ، شرح مصنفات البيضاوي ، وهي «الغاية القصوى» في الفقه ، و«المنهاج» في أصول الفقه ، و«مصباح الأرواح» في أصول الدين[١].

ثانياً: البيضاوي أصولياً:

يشكل علم أصول الفقه المنارة الوضاءة بين العلوم الشرعية ، ويعتبر مفخرة الأمة في حضارتها وعلومها ، وهو مما انفرد المسلمون في التاريخ ، ذلك أنه عبارة عن القواعد والمبادىء التي سار عليها الفقهاء في استنباط الأحكام ، وبيانها للناس ، وأنه يتكون من الضوابط التي يلتزم بها الفقيه أو المجتهد ، بقصد أن يكون طريقه مستقيماً واضحاً ، لا يعتريه وهن أو انحراف ، ولا خبط أو اضطراب ، كما أن هذا العلم هو المصباح الذي ورثته الأجيال ، وحمله العلماء لبيان الأحكام الشرعية في كل جديد ، ومعالجة المشاكل التي تطرأ ، وغير ذلك وفق منهج محدد يسير عليه العالم في الاستنباط والاجتهاد.

وعرف البيضاوي أصول الفقه بأنه «معرفة دلائل الفقه إجمالاً ، وكيفية الاستفادة منها ، وحال المستفيد»[٢].

وقد لمع نجم أصول الفقه في القرن السابع الهجري ، وصارت الكتب التي صنفت في هذا القرن في أصول الفقه نقطة ارتكاز من جهة ، ونقطة

= بها عن الوسيط في (طبقات الشافعية الكبرىٰ ١٥٨/٨ هامش من الطبقات الوسطى).

(١) انظر ترجمته في (البدر الطالع ٤١١/١ ، الدرر الكامنة ٤٧/٣ ، الأعلام ٢٧١/٤).

(٢) منهاج الوصول في معرفة علم الأصول ص ٣.

تحول متميزة بين ما سبقها وما لحقها من جهة أخرى ، وظهر في هذا القرن أشهر علماء الأصول الأعلام كالإمام الرازي (٦٠٦هـ) ، والتبريزي (٦٢١هـ) وسيف الدين الآمدي (٦٣١هـ) ، وابن الحاجب (٦٤٦هـ) والقرافي (٦٨٤هـ) والقاضي البيضاوي (٦٨٥هـ) ، وشمس الدين الأصفهاني (٦٨٨هـ) وابن الساعاتي (٦٩٤هـ).

وكان للقاضي البيضاوي مكانة عظيمة في هذه النهضة المباركة لعلم أصول الفقه في هذا القرن ، بل يعتبر البيضاوي وابن الحاجب الحوض الذي انصبت فيه الجهود المبذولة في الأصول ، فجمعوها ، ثم نقحوها ، ثم صاغها كل منهما في مختصره المشهور الذي دار حوله هذا العلم عدة قرون ، حتى وقتنا الحاضر.

كتب البيضاوي الأصولية:

يعتبر البيضاوي من أعلام أصول الفقه عن جدارة واستحقاق ، لأنه درس هذا العلم العظيم ، وأتقنه ، وهضم ما كتب فيه ، ثم تابع الطريق ليعطي الثمار اليانعة ، والمحصول المبارك فيه ، وصنف عدة كتب في أصول الفقه ، وهذه الكتب متنوعة ، بعضها اختصار لكتب غيره ، وبعضها شرح لأهم مختصرات هذا العلم ، وكان رحمه الله يشير في الفقه إلى كتبه الأصولية ، فيقول مثلاً : «كما بينا في كتبنا الأصولية»[1].

وذكرت معظم كتب التراجم والتاريخ مصنفات البيضاوي في أصول الفقه وإن ضنت علينا الأيام بأكثرها ، ولم يبق في التداول والانتشار وحلقات الدرس والعلم ، إلا أصغرها وأهمها ، وهو «المنهاج» وهذه الكتب هي:

١ ـ منهاج الوصول في معرفة علم الأصول ، ويعرف اختصاراً بالمنهاج.

---

(١) الغاية القصوى.

٢ ـ شرح منهاج الوصول[١].

٣ ـ شرح المنتخب في أصول الفقه للإمام فخر الدين الرازي الذي انتخبه من كتابه المحصول[٢].

٤ ـ مرصاد الأفهام إلى مبادئ الأحكام ، وهو شرح مختصر ابن الحاجب المشهور وعنوانه «مختصر منتهى السؤل والأمل إلى علمي الأصول والجدل»[٣].

٥ ـ شرح المحصول للإمام فخر الدين الرازي[٤].

وأكثر هذه الكتب انتشاراً وشيوعاً ، وتداولاً في أروقة العلم ، واعتماداً عليه في تناول علم أصول الفقه وشرحه والتعليق عليه ، وحفظه واقتباس التعريفات والأحكام منه هو «كتاب منهاج الوصول في معرفة علم الأصول» ، وسوف نفرده بالدراسة والبيان.

منهاج الوصول:

هذا الكتاب مختصر في علم أصول الفقه ، يبلغ ١٢٠ صفحة من الحجم الوسط ، وهو حلقة أساسية في سلسلة كتب أصول الفقه منذ عهد

---

(١) انظر: بغية الوعاة ٢/ ٥١ ، روضات الجنات ص ٤٥٤ ، طبقات المفسرين ١/ ٢٤٣ ، الوافي بالوفيات ١٧/ ٣٧٩ ، الفتح المبين ٢/ ٨٨ ، مفتاح السعادة ٢/ ١٠٥ ، حاشية الخفاجي ١/ ٤.

(٢) انظر: طبقات المفسرين ١/ ٢٤٣ ، البداية والنهاية ١٣/ ٣٠٩ ، إيضاح المكنون ٢/ ٥٦٩ ، حاشية الخفاجي ١/ ٤ ، مفتاح السعادة ٢/ ١٠٥ بغية الوعاة ٢/ ٥١ ، وانظر الكلام عن كتاب «المنتخب» وما يقال حوله ، وتحقيق نسبته في (المحصول ١/ ١/ ٥١ وما بعدها).

(٣) انظر: بغية الوعاة ٢/ ٥١ ، كشف الظنون ٢/ ٥٣٨ ، طبقات المفسرين ١/ ٢٤٣ ، الوافي بالوفيات ١٧/ ٣٧٩ ، حاشية الخفاجي ١/ ٤ ، مفتاح السعادة ٢/ ١٠٥ ، الفتح المبين ٢/ ٨٨.

(٤) انظر: البداية والنهاية ١٣/ ٣٠٩.

الشافعي رحمه الله تعالى الذي صنف أول كتاب في علم أصول الفقه ، وكان أول من قام بتدوين أصول الفقه حتى وقتنا الحاضر.

وهذه السلسلة في أصول الفقه تبدأ من «الرسالة» للإمام الشافعي ، التي كانت المنارة الباسقة لدعوة العلماء للتأليف والكتابة والتصنيف في علم أصول الفقه ، وكانت حجر الأساس في بناء صرح هذا العلم ، فشمر العلماء والأئمة عن ساعد الجد ، وحرروا المصنفات ، وأكملوا البناء الذي أقام أساسه الإمام الشافعي ، وتنوعت الطرق في تصنيف علم أصول الفقه ، وكان من أهم الكتب التي ألفت على طريقة الشافعية أو المتكلمين ثلاثة ، وهي المعتمد لأبي الحسين البصري (٤٦٣هـ) ، والبرهان لإمام الحرمين الجويني (٤٨٧هـ) ، والمستصفى لأبي حامد الغزالي (٥٠٥هـ) ، فجاء الإمام فخر الدين الرازي (٦٠٦هـ) فجمع الكتب الثلاثة السابقة ولخصها ، وأحاط بكل ما كتب قبله ، وصاغ هذا العلم صياغة محكمة ، وثيقة ، مع المقارنة والمناقشة ، وصنف كتابه الكبير المشهور «المحصول في علم الأصول» الذي بلغ القمة والأوج ، وكان يعتبر ثورة في علم الأصول[1].

وكان الرازي رحمه الله قد ملأ الدنيا بعلمه ، وشغل الناس بمكانته وتصانيفه ، ومنها «المحصول» الذي جمع فيه مزايا الكتب التي سبقته ، وأحاط بمباحثها ، وتجنب المآخذ التي وردت عليها ، وتعقب أقوالهم ، واستدرك الكثير عليهم ، وصاغ أصول الفقه وقواعده في أسلوب حسن ، وعبارة محكمة ، وتعبير دقيق ، وأفاض عليها من علمه الغزير ، وعقله الواسع العميق ، حتى تبوأ «المحصول» قمة علم الأصول ، وقصده

---

(١) انظر كتابنا: أصول الفقه الإسلامي ص ٤٥ وما بعدها.

العلماء في جميع الأرجاء بالدراسة والاستفادة منه ، واختصاره وشرحه[1].

وممن اختصره «المحصول» تاج الدين أبو عبد الله محمد بن الحسين الأرموي المتوفى سنة (٦٥٦هـ) في كتابه «الحاصل من المحصول» ، وجاء القاضي البيضاوي فاختصر «الحاصل» في كتابه «منهاج الوصول إلى علم الأصول» بعبارة دقيقة ، واختصار محكم ، حتى صار متناً معتمداً في الأصول ، يحفظه الطلاب والعلماء عن ظهر غيب ، ثم وضعوه للتدريس ، وتناولوه بالشروح.

قال الإسنوي: «اعلم أن المصنف أخذ كتابه من «الحاصل» للأرموي ، و«الحاصل» أخذه مصنفه من «المحصول» للرازي ، و«المحصول» استمداده من كتابين ، لا يكاد يخرج عنهما غالباً ، أحدهما المستصفى للغزالي ، والثاني المعتمد لأبي الحسين البصري. . . وسببه على ما قيل أنه كان يحفظهما»[2].

وقال الإسنوي عن «المنهاج»: «ثم إن أكثر المشتغلين في هذا الزمان قد اقتصروا من كتب [الأصول] على «المنهاج» للإمام قاضي القضاة ناصر الدين البيضاوي رضي الله عنه لكونه صغير الحجم ، كثير العلم ، مستعذب اللفظ ، وكنت أيضاً ممن لازمه درساً وتدريساً»[3].

وقال ابن كثير: «ومن مصنفاته المنهاج في أصول الفقه ، وهو مشهور ، وقد شرحه غير واحد»[4].

---

(١) لقد حقق المحصول وأخرجه للوجود الأخ الفاضل الأستاذ الدكتور طه جابر العلواني في ستة مجلدات وانظر مقدمته ١/١/٢٨ ، ٤٠.

(٢) نهاية السول ١/٤.

(٣) المرجع السابق ١/٢.

(٤) البداية والنهاية ١٣/٣٠٩.

ونقل ابن العماد عن ابن حبيب قال: «تكلم كل من الأئمة بالثناء على مصنفاته، ولو لم يكن له غير «المنهاج» الوجيز لفظه، المحرر، لكفاه»[1].

وقال المراغي: «وهو كتاب تناوله العلماء بالشرح والتعليق، وانتفع به الطلاب والعلماء»[2].

ونلاحظ أن أول من شرح «المنهاج» مؤلفه البيضاوي رحمه الله تعالى، كما أنه شرح أصل أصله، وهو المحصول، وصاحب البيت أعرف من غيره، وأهل مكة أدرى بشعابها.

خطة البيضاوي في المنهاج:

بدأ البيضاوي كتابه القيم المختصر «المنهاج» بتقديم من صفحة واحدة، ثم عرف أصول الفقه تعريفاً لقبياً باعتباره حقيقة عرفية دون النظر إلى أجزائه المركب منها، فقال:

«أصول الفقه: معرفة دلائل الفقه إجمالاً، وكيفية الاستفادة منها، وحال المستفيد»[3].

وشرح التعريف شرحاً موجزاً، ثم بين خطته في الكتاب، فقال: «رتبناه على مقدمة وسبعة كتب».

ففي المقدمة شرح الأحكام الشرعية ومتعلقاتها وفيما لا بد للحكم منه، كالحاكم وهو الله تعالى، والمحكوم عليه وهو المكلف، والمحكوم به، وهو فعل المكلف، وفي الكتاب الأول بحث المصدر الأول للتشريع وهو الكتاب الكريم، وتكلم فيه على دلالات الألفاظ،

---

(١) شذرات الذهب ٥/ ٣٩٢.
(٢) الفتح المبين في طبقات الأصوليين ٢/ ٨٨.
(٣) منهاج الوصول ص ٤.

فبين الحقيقة والمجاز ، والعموم ، والخصوص ، والمطلق والمقيد والمجمل ، وقسمه إلى تسعة أبواب ، وقسم الباب إلى فصول أحياناً.

وفي الكتاب الثاني بحث السنة في بابين الأول في أفعاله عليه الصلاة والسلام ، والثاني في الأخبار ، وفيه ثلاثة فصول ، وتحدث في الكتاب الثالث عن الإجماع فبين حجية وأنواعه ، وشرطه ، وعرض في الكتاب الرابع القياس في بابين ، فذكر حجية ، وأركانه ، وتوسع في الكلام عن العلة ، وفي الكتاب الخامس تناول الأدلة المختلفة فيها ، وقسمها إلى قسمين الباب الأول في الأدلة المقبولة ، وهي الإباحة الأصلية والاستصحاب والاستقراء ، وأقل ما قيل والمناسب المرسل ، وفقد الدليل ، والباب الثاني في الأدلة المردودة وهي الاستحسان وقول الصحابي.

وفي الكتاب السادس تكلم عن التعادل والترجيح في أربعة أبواب ، الأول في تعادل الأمارتين ، والثاني في الأحكام الكلية للترجيح ، والثالث في ترجيح الأخبار ، والرابع في ترجيح الأقيسة ، وأما الكتاب السابع والأخير مخصصه للاجتهاد والإفتاء في بابين ، فعرف الاجتهاد ، وبين شروط المجتهد وحكم الاجتهاد ومسائل الإفتاء.

وختم المنهاج بسطر واحد ، فقال: «وليكن هذا آخر كلامنا ، والله الموفق والهادي للرشاد»[1].

طريقة البيضاوي في المنهاج:

عرض البيضاوي أهم مسائل أصول الفقه بأسلوب مختصر ، وعبارة مسبوكة ، وكلام دقيق ، ويجمع بين المنقول والمعقول كما قال في تقديمه: «وإن كتابنا هذا «منهاج الوصول إلى علم الأصول» الجامع بين

---

(١) المرجع السابق ص ١٢١.

المعقول والمشروع ، والمتوسط بين الأصول والفروع ، وهو وإن صغُر حجمه ، كبُر علمه ، وكثرت فوائده ، وجلّت عوائده ، جمعته رجاء أن يكون سبباً لرشاد المستفيدين ونجاتي يوم الدين»[1].

ويسير على طريقة المتكلمين ، فيبين أوجه الخلاف ، ويستدل للراجح ، ويرد على المخالف ، ويعتمد على ذكر الشبهة والرد عليها على أسلوب علم الكلام ، والمعروف بالفنقلة ، أي: فإن قلت كذا ، قلنا كذا[2].

ويبدأ الكلام بذكر المصطلحات الأصولية ، ويبين وزنها الصرفي ، ومعناها اللغوي ، ثم ينتقي التعريف الأصولي الدقيق ، الواضح ، المسبوك ، ثم ينتقل إلى الأحكام الأصولية ، وقواعد الاستنباط ، وتقرير الآراء.

شروح المنهاج وحواشيه:

اعتنى العلماء قديماً وحديثاً بكتاب «المنهاج» للبيضاوي ، فتصدى كثير منهم لشرحه ، وكتب كثيرون الحواشي والتعليقات على الشروح ، واستدرك عليه آخرون ، ومنهم من قام بتخريج أحاديثه ولغاته ، ومنهم من نظمه ، ومنهم من كتب الزيادات في علم الأصول التي لم يتعرض لها «المنهاج» وبلغت هذه الشروح والحواشي أكثر من خمسين كتاباً ، طبع كثير منها مرات ومرات ، كما طبع المنهاج نفسه عدة مرات.

ومن هذه الشروح: شرح القاضي البيضاوي نفسه ، وشرح الأيكي الشيرازي (٦٩٧هـ) ، وشرح الجزري (٦٣٠هـ) ، وشرح المراغي

---

(١) المرجع السابق ص ٣.

(٢) انظر: كشف الظنون ٢/ ٥٥٤ وما بعدها ، إيضاح المكنون ٢/ ٥٩٠ ، مقدمة نهاية السول ١/صفحة ي ، دائرة المعارف الإسلامية ٤/ ٤١٩ ، مفتاح السعادة ٢/ ١٠٥ ، ١٩٢ ، منهاج الوصول ٢٩ ، ٣٧ ، ٤٤.

(٧٦٤) وشرح الفرغاني العبري (٦٤٢هـ) وشرح التبريزي الحنفي (٧٤٣هـ) وشرح التبريزي الجاربردي (٧٤٦هـ) وشرح الأصفهاني (٦٩٤هـ) وشرح تقي الدين السبكي (٧٥٦هـ) وولده تاج الدين السبكي (٧٧١هـ) واسم «المنهاج» في شرح المنهاج مطبوع، وشرح الإسنوي (٧٧٢هـ)، وشرح ابن الملقن (٨٠٤هـ) وشرح أبي زرعة العراقي (٨٢٦هـ) وشرح ابن رسلان الرملي (٨٤٢هـ) والشرح الكبير لكمال الدين بإمام الكاملية (٨٧٤هـ) وشرح البدخشي الحنفي.

وأحسن هذه الشروح وأنفعها شرح برهان الدين الفرغاني العِبري[١] (٧٤٢هـ) وشرح الأسنوي، وهو شرح متوسط الحجم، توخى فيه الإيضاح والسهولة، وذكر فيها ما يرد عليها من الأسئلة، ونبه على ما وقع فيه من الغلط في النقل، وبين مذهب الشافعي في الفروع والأصول وأشار إلى المواضع التي خالف فيها البيضاوي إمام الحرمين والآمدي وابن الحاجب، وكتب على هذا الشرح عدة حواشٍ وتعليقات، منها حاشية العلامة الشيخ محمد نجيب المطيعي (١٢٧١هـ/ ١٩٣٥م) وطبع شرح الأسنوي مع حاشية المطيعي، كما طبع شرح الأسنوي مع شرح البدخشي عدة مرات، وكان شرح الأسنوي «نهاية السول في شرح منهاج الأصول» الكتاب المقرر في كلية الشريعة بجامعة الأزهر.

كما خرّج الأحاديث الشريفة التي وردت في «المنهاج» عدد من العلماء، منهم الإمام العلامة الزركشي (٧٩٤هـ) صاحب «البحر المحيط» في الأصول، وضم إلى تخريج أحاديث «المنهاج» تخريج أحاديث «مختصر ابن الحاجب» وسمى كتابه «المعتبر في تخريج أحاديث المنهاج والمختصر»[٢]، ومنهم الحافظ عبد الرحيم العراقي (٨٠٦هـ)،

---

(١) يوجد من شرح العِبري نسخة بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية بالقاهرة.

(٢) يوجد نسخة من هذا الكتاب بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية بالقاهرة.

ومنهم سراج الدين عمر بن الملقن (٨٠٤هـ).

ونظم «المنهاج» الحافظ عبد الرحيم العراقي (٨٠٦هـ) والعلامة الزرعي (٧٧٦هـ) ويوسف العيني (٨٩٨هـ) وشهاب الدين الطوخي الشافعي المعروف بابن رجب المولود (٨٤٧هـ)، وأحمد بن يوسف الكوراني (٨١٠هـ).

وجمع الزوائد على «المنهاج» جمال الدين الأسنوي (٧٧٢هـ) صاحب الشرح السابق المشهور، والإمام برهان الدين إبراهيم الأبناسي الشافعي[١].

البيضاوي وبقية العلوم:

كان البيضاوي رحمه الله ذا ثقافة متنوعة، وكان كالبحر يضم في جنباته الخير الكثير، فأعطى ما عنده، وكتب في عدة علوم كما سبق، وصنف عدة مصنفات، وشرحنا الجانب الفقهي والأصولي، ونشير فقط إلى بقية العلوم، وخاصة التفسير الذي ذاع فيه صيته، واشتهر في الآفاق كالمنهاج في الأصول وأكثر، وتلقى العلماء بالقبول كتابه في التفسير «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» وعكفوا عليه بالدراسة والتدريس، والشرح والحواشي والتعليقات التي تجاوزت الحصر، وطبع تفسيره مع شروحه وحواشيه عدة مرات، وفي أقطار مختلفة، وخاصة حاشية شهاب الدين الخفاجي المطبوعة في ثمانية مجلدات، كما اشتهر كتابه «نظام التواريخ» واعتنى به أهل فارس، ويضاف إلى ذلك مشاركته في الحديث الشريف بشرح مصابيح السنة للبغوي، وفي العربية بتصنيف كتابين في

---

(١) انظر: كشف الظنون ٢/٥٥٥ وما بعدها، نهاية السول ١/صفحة ي، إيضاح المكنون ٢/٥٩٠.

النحو والإعراب ، وفي علم الهيئة والمنطق ، وموضوعات العلوم وتعريفها.

خاتمـة:

هذه صورة مشرقة عن حياة البيضاوي ، وآثاره الخالدة ، وكتبه النافعة ، ومصنفاته المشهورة ، ولئن ضنَّ علينا التاريخ بالأضواء الكاشفة عن ولادته ونشأته وشيوخه وتلاميذه فإن مآثره العلمية عوضت خيراً من ذلك ، وبقيت شامخة جليلة ، وكانت نوراً و ضياء للمسلمين في كل زمان ومكان ، فقيمة الإنسان بما يتقن ، ولسنا بالآباء نفتخر ، وكل امرىء يقدر بكسبه وعمله ، وحسبنا في ذلك حديث رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية ، وعلم ينتفع به ، وولد صالح يدعو له»[1] ، وهذا علم البيضاوي ينتفع به إلى يوم الدين ، ليكتب ثوابه في صحائفه ، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً ، ورحمه الله رحمة واسعة ، والحمد لله رب العالمين.

* * *

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.